في مواجهة الحرب على العراق

من أجل إعادة تأسيس للحركة الوطنيّة العراقيّة المعاصرة:

التيّار الوطنيّ المعارض ومتغيّرات اللحظة الراهنة

عبد الأمير الركابي

في عام ١٩٩٠ ظهر التيّار الوطنيّ العراقيّ المعارض بناءً على متغيّرات كانت تُنْذر بتبدُّل جوهريّ في كلّ ما عُرف عراقيّاً قبل هذا التاريخ من أفكار وممارسات اتّسمت بها حركةُ التحرُّر العالميّة، ومن ثم إجماليُّ الإيديولوجيّات وممارساتِ الأحزاب والقوى التي كانت قد تأسّستْ بعد عشرينيّات القرن الماضي. ففي ذلك الوقت (١٩٩٠) كانت هنالك أشياء قليلة قد بقيت ثابتةً كأنّها لا تتغيّر، مثل الوقوف ضدّ العدوان الأميركيّ والموقفِ من قضيّة الدكتاتوريّة. غير أنّ التاريخ والتدقيقات اللاحقة سوف تجد في ممارسات هذا التيّار وأفكاره أوسعَ ما يُمْكن من المحاولات للإجابة الشاملة عن أهمّ التساؤلات النظريّة والسياسيّة، ولكنْ مع أقلّ ما يُمْكن من القدرة على لفت الانتباه واكتساب الشرعيّة: فبعد أكثر من اثنتيْ عشرة سنة من وجود هذا التيّار لم يُعْرف على نطاق مناسب أو يُعْترف به كما يستحقّ. ويعود ذلك، في الدرجة الأولى، إلى حدّة الاستقطاب العالميّ الناشئ خلال هذه الفترة، وإلى طغيان منطقَي العدوان الأميركيّ من جهة والنظام العراقيّ من جهة أخرى.

فلقد أُريد لظاهرة التيّار الوطنيّ العراقيّ المعارض أن تُدْرَجَ في السياق السائد، ومُنعتْ من أن تَخْرج عمّا هو متعارف عليه. وكان الثقلُ الذي يزكّي هذا المنحى هائلاً على كلّ الصُّعد، وبالأخصّ على صعيدَي السلطة والمعارضة. لا بل امتدّ نفوذُ الماضي حتى داخل التيار الوطنيّ المعارض نفسِه: فمَنْ كان بمقدوره أن يَمْنع قوًى تنتمي إلى الماضي من أن يكون لها حضور وسط تيّار المستقبل الذي يجاهد معاندًا الوقائعَ وساعيًا إلى خرقها؟ لقد حدث هذا بالفعل، ووُجدتْ في ذلك التيّار قوًى تنتمي فعليّاً إلى السقف الذي تمثّله السلطةُ. ولمّا كانت اللحظات الانتقاليّة، وتلك التي تَشْهد اهتزازاتٍ كبرى في الثوابت والقيم المتعارف عليها، تقوّي الشرعيّات التاريخيّة من خلال الأشخاص في حال سقوط الأفكار والممارسات، فإنّ بعض تلك القوى المندمجة في التيّار الوطنيّ المعارض ظلّت تعاند محاولةَ انتزاع التمثيل الوطنيّ باسم بعضٍ من شرعيّات حزبيّة وبقايا تاريخ بغضّ النظر عن التباسه وقابليّته للمحاكمة. والنتيجة التي تمخّضَ عنها هذا المظهرُ غيرُ الضروريّ تمثّلتْ في المزيد من تعقيد الموقف، خاصةً على صعيد تسريع عمليّة التمايز وصفاءِ ملامح التمثيل المطابقِ للّحظة.

المشروع العمليّ الوحيد: التغيير من دون حرب، رحمةً بضحايا الحصار من الأطفال وغيرهم

في المستقبل فقط، سوف تُراجَع هذه اللحظةُ من لحظات التاريخ، ليُنْظَرَ فيها من زاويةِ ما إذا كانت تستحقّ أن تعامَلَ كلحظةٍ فاصلةٍ وتأسيسيّة أم أنّها كانت مجرّدَ ظاهرةٍ عارضة. وعندها سيكون أولئك الذين حَمَلوا الرايةَ بأمانة وعَبَّروا عنها بأكبر قدْر من الصدق قد اجتازوا امتحاناتٍ لم يجتزْها ربّما المؤسِّسون العراقيُّون الذين وَضَعوا في عشرينيّات القرن الماضي الأسسَ التي قامت عليها الحركةُ الوطنيّة العراقيّة المعاصرة في طورها الأول. ولا داعي هنا لأن نعدِّدَ الفوارقَ التي تُحسب لمصلحة ذلك الرعيل الأوّل، من قبيل وضوح المعركة الوطنيّة ضدّ الاستعمار، أو من قبيل الاستقطاب العالميّ بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسماليّ - وكلُّها عوامل كانت تقلّل من

الآثار المعوّقة لانتشار الأفكار العصريّة في البلدان المتخلّفة. كما أنّ الخصائص والتاريخ الوطنيّ السابق على مجيء الاستعمار الإنكليزيّ كانت تحتوي عناصرَ ثوريّةً قويّةً نابعةً من التكوين المحليّ، الأمرُ الذي يساعد على منح القوى العصريّة الناشئة دفقًا واستمراريّةً كانتا مثارَ دهشةٍ دائمة. وحتى على صعيد الخلفيّة النظريّة فإنّ العراقيّين وَجَدوا آباءً محليّين، مثلَ الزعيم الوطنيّ الكبير جعفر أبو التمن، واستطاعت تلك القوى الناشئة عند الضرورة أن تستعير تجاربَ وأفكارَ عصر النهضة الفكريّة العربيّة التي انتعشتْ في مصر وساحل الشام ولكنّها كانت ضعيفة تمامًا في العراق.

ليس مِنْ تقصُّدٍ يُمْكن الاستدلالُ عليه في المواقف المختلفة للتيّار الوطنيّ للابتعاد عن الطور الأول من تاريخ الحركة الوطنيّة العراقيّة المعاصرة، التي كانت وما تزال في أزمة. ولكنّ هذا الجانب كان حاضرًا من الناحية الموضوعيّة البحتة، بقدْرِ ما كان عَرَضِيّاً. وفي حالتنا كانَ العدوان الراهن والمتفاقم الذي عاشه العراقُ قد ألقى على البنية الوطنيّة العراقيّة تحدّيًا تاريخيّاً وربّما كونيّاً. فهذه البنية مضطرّة اليوم إلى أن تقدّم أجوبةً عن تحدّ هائل تواجهه البشريّةُ كلُّها بينما هي ـ أي البنية ـ موجودة في المتراس الأول من دون اختيار منها. إنّها وحيدة، إذ انهارت كلُّ أشكال «المساعدة» التي كان يتلقاها الروّادُ الأُولُ في عشرينيّات القرن الماضي: فاليوم لا قوة للأفكار الاشتراكيّة والتحرُّريّة، وتدهورتْ مصداقيّةُ أفكار النهضة العربيّة وتراجعتْ جدواها. وهذا يعني أنّ المجابهة الحاليّة ليست أقلَّ من بدءٍ على ورقة بيضاء.

ولعلّ هذا هو التحدّي الأول للوطنيّة العراقيّة بما هي عليه اليوم، بعد أن كانت في الماضي ميّالةً عند الضرورة إلى الاستعارة من غيرها. ولا مَهْرب، والحالةُ هذه، من البحث عن خاصيّاتٍ ما ذاتِ بعدٍ كونيّ تُستحضر من التاريخ العراقيّ. فهل العراق بلدٌ مؤهّلٌ لأن يقدِّم أجوبةً من هذا الصنف الشامل والكونيّ؟ نعم إنّه لكذلك، وعليه أن يكون مؤْمنًا بأنه يستطيع اليوم أيضًا أن يكرِّر قوةَ الإبراهيميّة والتكنولوجيا الأولى وما لا يُحصى من الإشعاعات القديمة والوسيطة. إنّ كلّ ما يحتاجه هو أن يوسِّع تصوُّراتِه، ويتخلّصَ تمامًا من الأطر والقيود التي تتحكّم بتفكير نخبته نتيجةً للعادة والعجز.

إنّ أعضاء التيار الوطنيّ المعارض، الذين يواجهون المشكلات اليوميّة باعتبارهم سياسيّين ذوي مهمّاتٍ تُجْبرهم على قول آراء محدّدةٍ تَصْلح للتعامل اليوميّ، يَعْلمون أنّ الصراع الفعليّ يدور في الأصل على اكتساب الشرعيّة، أيْ على إحلال منظور مناسب للّحظة محلّ منظورٍ تمثّله العشراتُ من القوى المتزاحمة المتراكبة بعضها فوق بعض. وعلى هذا الصعيد كانت تؤسَّس سلسلةُ المواقف المعروفة المضادّة للعدوان وللتدخُّل الأميركيّ في شؤون العراق، والرافضة للحصار ولخديعة الفصل بين الوسائل والأهداف، والمتبنّية لمبادئ التغيير السلميّ الشامل بدل شعارات الانقلابات العسكريّة والاستعانة التدميريّة بالأجنبيّ.

واليوم، مع اقتراب الحرب، فإنّ المشروعَ الوحيدَ العمليّ الصالح للتداول والتبنّي إنّما هو مشروعُ «التغيير من دون حرب،» والدعوةُ إلى قيام حكومة إنقاذ وطنيّة انتقاليّة تشارك فيها القوى الأساسيّةُ وتُفْضي إلى قيام عراق دستوريّ خلال فترة لا تتعدّى العامَ الواحدَ. هذا المشروع، الذي تمّ طرحُه من قِبل التيّار الوطنيّ الديموقراطيّ المعارض منذ شهر تموز (يوليو) المنصرم، أصبح مقبولاً وتتبنّاه القوى الكرديّةُ، كما صرّح بذلك مؤخّرًا جلال الطالباني. وهو رؤية تستحقّ أن تتبنّاها كلُّ القوى والدول المتضرِّرة من العدوان على العراق عربيّاً وإقليميّاً، فضلاً عن فرنسا ومجملِ أوروبا وروسيا والصين، الأمرُ الذي يوفِّر آليّةً دوليّةً وضماناتٍ ضروريّةً تحقّق هذه العمليّة وتؤمّن تغييرًا سلميّاً يُبْعد شبحَ الحرب عن المنطقة والعالم، علمًا أنّ الولايات المتحدة ذاتَها تعاني مأزقَ فقدانها للبديل وتَحْتاج بفعل ضخامة مصالحها الاستراتيجيّة في العراق إلى استقرار يَعْقب الحرب.

إنّ ذلك كلّه هو ما يجعل الحلّ الذي يتبنّاه التيّارُ الوطنيّ المعارض قابلاً للتنفيذ أكثرَ من أيّ حلّ آخر، برغم ما تحيط به من عقبات ومصاعب تبدو الآن كبيرةً. هذا ناهيك عن أنّه الحلّ الوحيد الذي ينطوي على مغزًى وطنيّ، ويستجيب لضرورات لا مهربَ منها مثل مسألةِ الانتقال الى المشاركة السياسيّة وزوال الدكتاتوريّة.

حين يَحْضر الوجهان ـ العمليُّ المباشر أي السياسيّ، والفكريُّ النظريُّ ـ بالسويّة نفسها، ويَكُونان من نمطٍ يستدعي الحقائقَ التي تشير إلى المستقبل، فإنّ ما يَحْدث سيكون حتمًا انتقالاً تاريخيّاً، وستُسمع في الأرجاء أنغامُ الانقلاب الكبير. هكذا يدقّ التاريخُ أبوابَ الأمم!

باريس

عبد الأمير الركابي

كاتب عراقيّ يعيش في باريس. وهو أحد رموز التيّار الوطنيّ الديموقراطيّ المعارض. تسرَّب اسمُه منذ شهور مرشّحًا محتملاً لرئاسة حكومة إنقاذ ومصالحة وطنيّة في العراق.